
سلسلة
مسلمون علموا العالم
أبو بكر الرازى
تأليف/ محمد المطارقي
رسوم / هشام حسين
جرافيك / عبير صبحي البحيري



المطارقي، محمد.
أبو بكر الرازي: شيخ الأطباء
تأليف / محمد المطارقي. ـ (الجيزة: ينابيع،
2009) ..ص ؛ ..سم . ـ (مسلمون علموا العالم)
١– قصص الأطفال.
٢– القصص العربية
٣– الأطباء
٤– أبوبكر الرازي، محمد بن زكريا الرازي
أ– العنوان: 11ش الطوبجي–الدقي–الجيزة
رقم الإيداع: 23194/2009



كَانَ أَحْمَدُ يَسْتَعِدُّ لِزِيَارَةِ صَدِيقِهِ حُسَامٍ.. فَقَدْ مَرَّتْ بِحُسَامٍ وَعْكَةٌ صِحِّيَّةٌ شَدِيدَةٌ، وَعَافَتْ نَفْسُهُ الطَّعَامَ، لَكِنَّهُ تَمَاثَلَ لِلشِّفَاءِ بَعْدَ أَنْ الْتَزَمَ تَعْلِيمَاتِ الطَّبِيبِ.. كَمَا أَنَّ أَحْمَدَ كَانَ يَتَّصِلُ بِحُسَامٍ عَنْ طَرِيقِ الْهَاتِفِ لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ، وَأَحْيَانًا كَانَ يَجْلِسُ أَمَامَ شَاشَةِ الْحَاسُوبِ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ عَبْرَ الإِنْتَرْنِت، وَيُسْدِي إِلَيْهِ بَعْضَ النَّصَائِحِ الْمُهِمَّةِ لِكَيْ يَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهُ.. وَلأَنَّ حُسَامًا كَانَ يُحِبُّ صَدِيقَهُ أَحْمَدَ، وَيَحْـــتَرِمُ آرَاءَهُ وَنَصَائِحَهُ، فَقَدْ كَانَ يَسْتَجِيبُ لِكَلامِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحْمَدَ وَاسِعُ الاطِّلاعِ، لا يَتْرُكُ فُرْصَةً لِتَثْقِيفِ نَفْسِهِ إِلاَّ وَاغْتَنَمَهَا، وَخَاصَّةً أَنَّ أَحْمَدَ يَقْرَأُ هَذِهِ الأَيَّامِ فِي مَجَالِ الطِّبِّ؛ فَأُمْنِـــيَتُهُ أَنْ يُصْبِحَ طَبِيبًا؛ يُعَالِجُ الْمَرْضَى وَيَحْنُو عَلَى الْفُقَـــرَاءِ؛ يُدَاوِي أَوْجَاعَهُمْ وَيُخَفِّفُ مِنْ آلامِهِمْ.. وَهُوَ هَذِهِ الْمَرَّةَ يَقْرَأُ مِنْ أَجْلِ صَدِيقِهِ حُسَامٍ.

وَهَا هُوَ أَحْمَدُ يَكْتَشِفُ شَخْصِيَّةً جَدِيدَةً من تلْكَ الشَّخْصِيَّات الرَّائِدَة في مَجَال الطِّبِّ.. يَا لَهَا من فَرْحَة كَبِيرَة وَعَظِيمَة! إِنَّهُ اكْتشَافٌ جَدِيدٌ! عَلَيْه أَنْ يَذْهَب إِلَى أَصْدقَائه الآنَ.. فَالْجَميعُ في انْتظَاره في بَيْت حُسَام.

حَمَلَ أَحْمَدُ كتَابًا ضَخْمًا منْ تلْكَ الْكُتُب التُّراثيَّة الْقَديمَة الْمَوْجُودَة في مَكْتَبَة الْمَنْزل.. إِنَّهَا مَكْتَبَةٌ ثَرِيَّةٌ تَحْتَوِي عَلَى عَشَرَات الْكُتُب وَالْمُجَلَّدَات الضَّخْمَة وَالْمَخْطُوطَات النَّادرَة.. يَا لَهَا مِن مَكْتَبَة هَائِلَة، لَهَا رَائِحَةُ الْمَاضِي الْعَرِيقِ وَالْحَاضِر أَيْضًا!

وَكَانَ أَحْمَدُ يَشْتَرِي الْكُتُبَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْمجَلَّات الْمُلَوَّنَة، وَيَضَعُهَا في أَحَد أَرْكَان الْمَكْتَبَة قَائلاً: رَحمَ اللهُ جَدِّي.. تَرَكَ لَنَا كَنْزًا، عَلَيْنَا أَنْ نُحَافظَ عَلَيْه وَنَسْتَفيد منْهُ.. ثُمَّ الْتَقَطَ هَذَا الْكتَابَ الضَّخْمَ الْعَجيبَ، وَالَّذي يَتَحَدَّثُ عَنْ شَخْصيَّة تُعَدُّ منْ أَعْظَم الشَّخْصيَّات الَّتي ظَهَرَتْ في تَاريخ الطِّبِّ. قَالَ أَحْمَدُ: نَعَمْ، هَذَا الْكتَابُ يُنَاسبُ حُسَامًا، وَسَوْفَ يَحْظَى بقَبُول الأَصْدقَاء أَيْضًا.. وَاسْتَأْذَنَ أَحْمَدُ وَالدَتَهُ وَانْطَلَقَ منْ فَوْرِه إِلَى حُسَامٍ وَبَاقِي الأَصْدقَاء.



فِي حَدِيقَةِ الْمَنْزِلِ كَانَ حُسَامٌ يَجْلِسُ وَالأَصْدِقَاءُ مِنْ حَوْلِهِ يَنْتَظِرُونَ أَحْمَدَ.. قَالَ حُسَامُ: الْحَمْدُ للهِ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِتَحَسُّنٍ، وَأَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَعِيشَ مَعَ أَحْمَدَ فِي حِكَايَتِهِ الْجَدِيدَةِ. قَالَ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ: نَعَمْ، إِنَّنَا نَنْتَظِرُ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي سَيُحَدِّثُنَا عَنْهَا أَحْمَدُ.. فَتُرَى مَنْ سَتَكُونُ؟

قَالَ حُسَامُ: أَظُنُّ أَنَّ أَحْمَدَ سَوْفَ يَتَحَدَّثُ عَنْ شَخْصِيَّةٍ لَهَا عَلاقَةٌ بِمَجَالِ الطِّبِّ، نَظَرًا لِلظُّرُوفِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِي، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ عَلَى أَنْ مَنَّ عَلَيَّ بِالشِّفَاءِ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْتَرِدَّ صِحَّتِي، بَعْدَ أَنِ الْتَزَمْتُ بِإِرْشَادَاتِ الطَّبِيبِ الْمُعَالِجِ وَنَصَائِحِ أَحْمَدَ..

قَالَ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ: أَظُنُّ أَنَّ أَحْمَدَ سَيُصْبِحُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ؛ لأَنَّهُ يُحِبُّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ، وَلأَنَّهُ دَائِمُ الْمُطَالَعَةِ بِجِدٍّ، كَمَا أَنَّهُ يُحَاوِلُ تَطْبِيقَ مَا يَقْرَأُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ فِي سُلُوكِهِ وَأَفْعَالِهِ.

قَالَ آخَرُ: كَمْ أُحِبُّ أَحْمَدَ وَأَحْتَرِمُ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَأُحَاوِلُ أَنْ أَقُومَ بِتَقْلِيدِهِ، فَلَيْسَ عَيْبًا أَنْ نَقُومَ بِتَقْلِيدِ مَنْ نُحِبُّ مَا دَامُوا مُهَذَّبِينَ.

قَالَ حُسَامُ: هَا قَدْ وَصَلَ الصَّدِيقُ الْمُخْلِصُ أَحْمَدُ.

قَالُوا جَمِيعًا: أَهْلاً أَحْمَدُ.

وَمَا إِنْ فَتَحَ أَحْمَدُ الْكِتَابَ الضَّخْمَ الَّذِي يَحْمِلُهُ حَتَّى اتَّجَهَتِ الأَنْظَارُ كُلُّهَا إِلَيْهِ، وَكَانَتِ الابْتِسَامَةُ الْعَذْبَةُ تَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِهِمْ جَمِيعًا.. إِنَّهُمْ يَتَشَوَّقُونَ بِالْفِعْلِ لِمَعْرِفَةِ الْجَدِيدِ.



قَالَ أَحْمَدُ: حَدِيثُنَا الْيَوْمَ يَدُورُ حَوْلَ شَخْصِيَّةٍ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الرَّائِدَةِ فِي مَجَالِ الطِّبِّ.. هُوَ – بِلاَ شَكٍّ – مَوْسُوعَةٌ عِلْمِيَّةٌ، لَهُ مُؤَلَّفَاتٌ عَدِيدَةٌ فِي مَجَالاَتٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَالْكِيمْيَاءِ، وَالْفَلْسَفَةِ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ، وَالأَخْلاَقِ، وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَالصَّيْدَلَةِ وَالْعِلاَجِ النَّفْسِيِّ، حَتَّى إِنَّهُ وَضَعَ نَصَائِحَ وَإِرْشَادَاتٍ مُهِمَّةً لِكُلٍّ مِنَ الأَطِبَّاءِ وَعَامَّةِ النَّاسِ، بِأُسْلُوبٍ سَهْلٍ وَبَسِيطٍ!

وَكَذَلِكَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَصَلَ بَيْنَ الطِّبِّ وَالصَّيْدَلَةِ، وَجَعَلَ الْكِيمْيَاءَ فِي خِدْمَةِ الطِّبِّ، بَعِيدًا عَنِ الْخُزَعْبَلاَتِ وَالْمُشَعْوِذِينَ الَّذِينَ انْتَشَرُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.. وَلَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِاكْتِشَافَاتٍ كَثِيرَةٍ سَجَّلَهَا فِي مُعْظَمِ كُتُبِهِ.

قَالَ حُسَامُ: أَخْبِرْنَا يَا صَدِيقِي مَنْ هُوَ؟

قَالَ أَحْمَدُ: إِنَّهُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا، الْمَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ.

قَالَ أَحْمَدُ: وُلِدَ الرَّازِيُّ فِي عَامِ 865م، فِي مَدِينَةِ الرَّيِّ بإِيرَانَ، وَهِيَ تَقَعُ فِي شَرْقِ مَدِينَةِ طَهْرَانَ حَالِيًا.

مَا كَادَ أَحْمَدُ يَنْطِقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ حَتَّى وَجَدَ الأَصْدِقَاءُ شُعَاعًا مِنَ الضَّوْءِ يَكَادُ يَأْخُذُ بِأَبْصَارِهِمْ.. كَانَ الضَّوْءُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صَفَحَاتِ الْكِتَابِ الضَّخْمِ الَّذِي يُمْسِكُ بِهِ أَحْمَدُ، وَفِي أَقَلَّ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ كَانَ أَحْمَدُ يَلْتَفُّ بِهَذَا الضَّوْءِ وَيَغُوصُ دَاخِلَ طَيَّاتِ الْكِتَابِ، وَفِي لَحَظَاتٍ خَاطِفَةٍ أَيْضًا سَقَطَ الأَصْدِقَاءُ دَاخِلَ هَذَا الضَّوْءِ الْحَادِّ، وَهُمْ يَتَدَافَعُونَ وَيَضْحَكُونَ!!



يَا لَهَا مِنْ رِحْلَةٍ مُثِيرَةٍ وَمُمْتِعَةٍ! إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ جَيِّدًا إِلَى أَيْنَ هُمْ ذَاهِبُونَ.. إِنَّهُمْ فِي طَرِيقِهِمُ الآنَ لِمُقَابَلَةِ هَذَا الْعَالِمِ الْفَذِّ، الْمَعْرُوفِ بِـــ (شَيْخِ الأَطِبَّاءِ الْمُسْلِمِينَ)، وَاسْتَطَاعَ أَحْمَدُ أَنْ يَهْبِطَ فِي أَعْمَاقِ الْكِتَابِ لِيَجِدَ صَفَحَاتٍ تَحْمِلُ عَلَى صَدْرِهَا بُيُوتًا قَدِيمَةً، وَشَوَارِعَ سَاكِنَةً، وَأُنَاسًا يَرْتَدُونَ أَزْيَاءً غَرِيبَةً، تُشْبِهُ الْمَلَابِسَ الَّتِي تَظْهَرُ فِي الأَفْلَامِ التَّارِيخِيَّةِ.

صَاحَ أَحْمَدُ: هَا هُوَ يَجْلِسُ أَمَامَكُمْ.. انْظُرُوا، إِنَّهُ عَالِمُنَا الْكَبِيرُ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ.. كَمْ نَشْتَاقُ إِلَيْكَ أَيُّهَا الطَّبِيبُ الْمَاهِرُ!

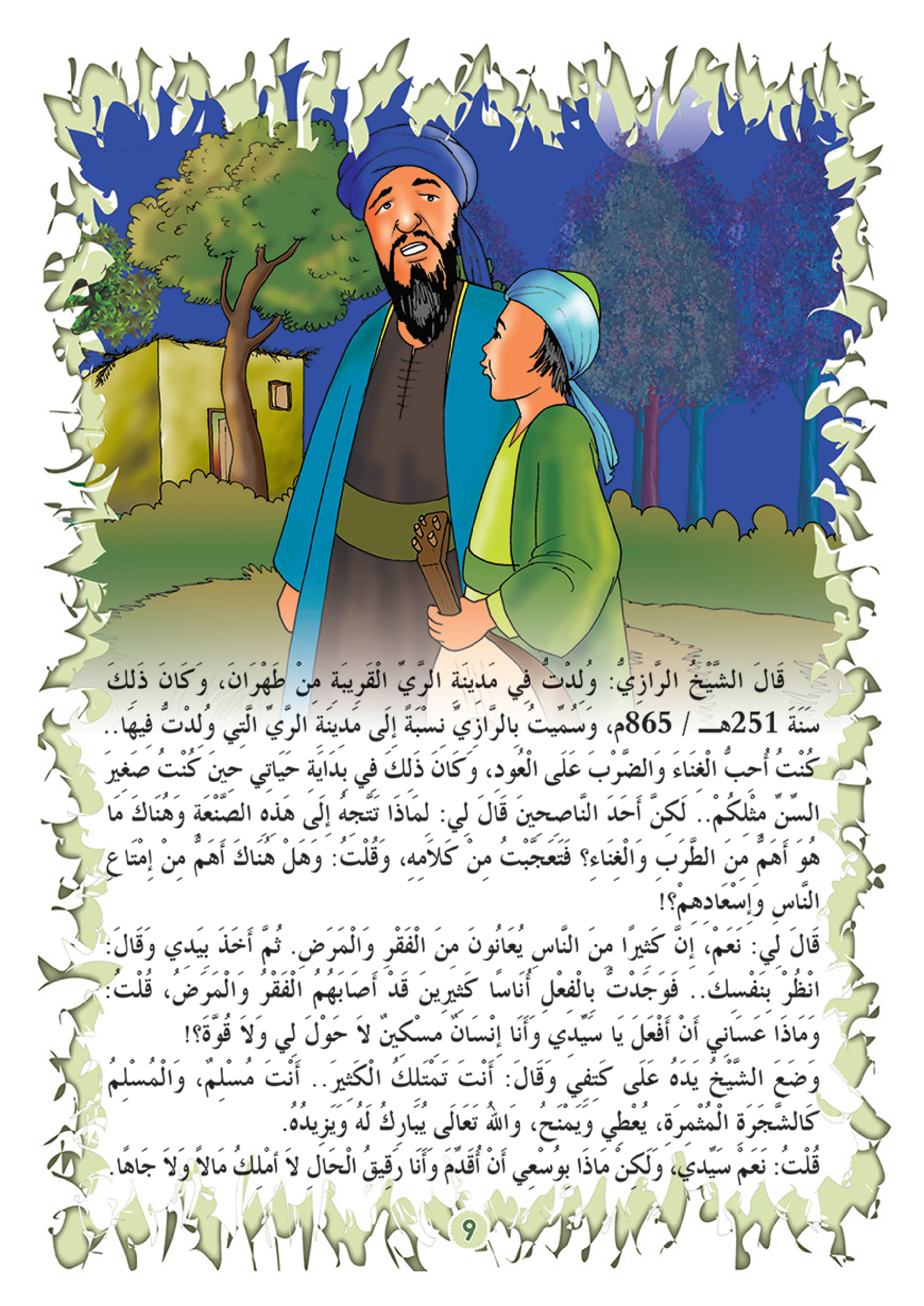


نَظَرَ الأَصْدقَاءُ فَإِذَا بأَجْملِ ابْتسامَةٍ ترتَسمُ علَى وجْه طَيِّبٍ وديعٍ.. كَانَ يُمسكُ عَصًا في يَده.. تَأَمَّلُوا وَجْهَهُ فَإِذَا بِه أَعْمَى الْبَصرِ! تَبادلَ الأَوْلادُ النَّظَرَات وَقَالُوا: يَا لَلْمسْكينِ! إِنَّهُ.. إنَّهُ لاَ يرى!!

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ الرَّازِيُّ قَائلاً: لَعَلَّكُمْ تَنظُرُونَ إِلَيَّ وَتَأْخُذُكُم الشَّفَقَةُ لأَنَّني أَعْمَى! لاَ، الْمَسْأَلَةُ أَبْسَطُ من ذَلك بكَثير، إِنَّهَا مَشيئَةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ عَلَى ذَلكَ.. أَمَّا السَّبَبُ فَلأَنَّني كُنْتُ دَائمًا أَقُومُ بعَمَلِ تجارب دَاخلَ الْمَعْمَلِ، فَتصَاعَدَت الأَبْخرَةُ وَالْموَادُّ الْكيمْيَائيَّةُ إِلَى وَجْهي، وَمعَ مُرُورِ الْوَقْت أَصَابَتْ عيْني.. حَدَثَ ذَلكَ كَثيرًا وَلَمْ أَكُنْ أَهْتَمُّ، فَقَدْ كَانَ غَايَةُ اهتمَامِي هُوَ عَمَلُ التَّجَارِبِ، وَالْوُصُولُ إِلَى نَتَائجَ جَديدَةٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: نَحْنُ في غَايَة الشَّوْق إِلَيْكَ. فَأَنْتُم عُلَمَاؤُنَا الْمُسْلمُونَ الَّذينَ عَلَّمْتُمُ الْعَالَمَ، وَرَفَعْتُمْ رُؤُوسَنَا عَاليَةً.. وَلَيْتَكَ تُحَدِّثُنَا عَنْ حَيَاتكَ، وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى تلْكَ الْمَكَانَة الْعَظيمَة.

ضَحكَ الشَّيْخُ الرَّازِيُّ قَائلاً: بِالْعلْمِ وَالصَّبْرِ.. لكَيْ تُحقّقَ طُمُوحَاتكَ لاَ بُدَّ أَنْ تَمْتَلكَ سلاَحَ الْعلْمِ وَسلاَحَ الصَّبْرِ.. وَأَنَا بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى سَعَيْتُ وَبَذَلْتُ كُلَّ مَا أَملِكُ منْ أَجْلِ طَلَبِ الْعلْمِ.

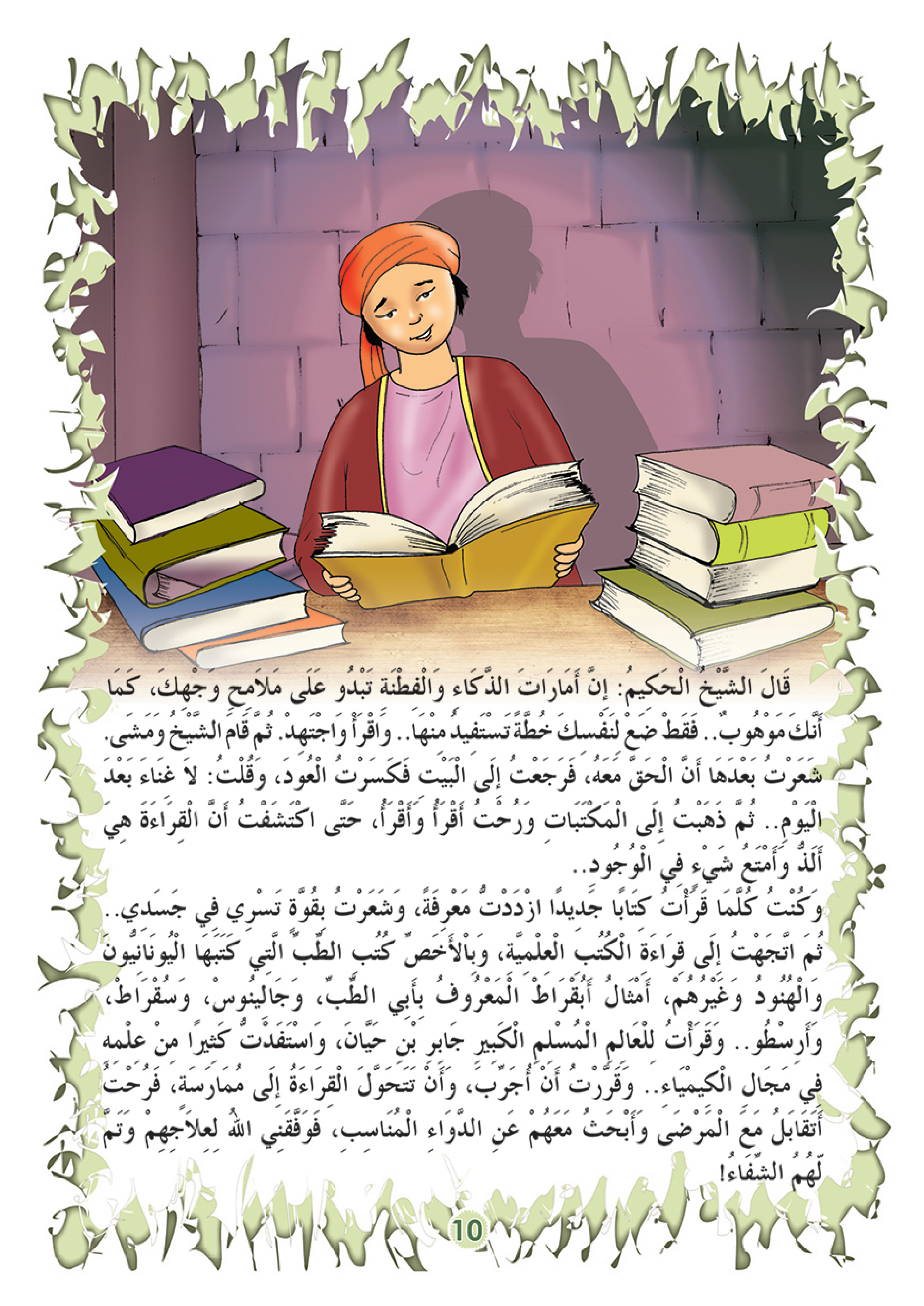


قَالَ الشَّيْخُ الرَّازِي: وُلِدْتُ في مَدِينَة الرَّيّ الْقَرِيبَةِ مِنْ طَهْرَان، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ 251هـ / 865م، وَسُمِّيتُ بِالرَّازِي نِسْبَةً إِلَى مَدِينَةِ الرَّيّ الَّتِي وُلِدْتُ فِيهَا.. كُنْتُ أُحِبُّ الْغِنَاءَ وَالضَّرْبَ عَلَى الْعُودِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بِدَايَةِ حَيَاتِي حِينَ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنّ مِثْلَكُمْ.. لَكِنَّ أَحَدَ النَّاصِحِينَ قَالَ لِي: لِمَاذَا تَتَّجِهُ إِلَى هَذِهِ الصَّنْعَةِ وَهُنَاكَ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنَ الطَّرَبِ وَالْغِنَاءِ؟ فَتَعَجَّبْتُ مِنْ كَلامِهِ، وَقُلْتُ: وَهَلْ هُنَاكَ أَهَمُّ مِنْ إِمْتَاعِ النَّاسِ وَإِسْعَادِهِمْ؟!

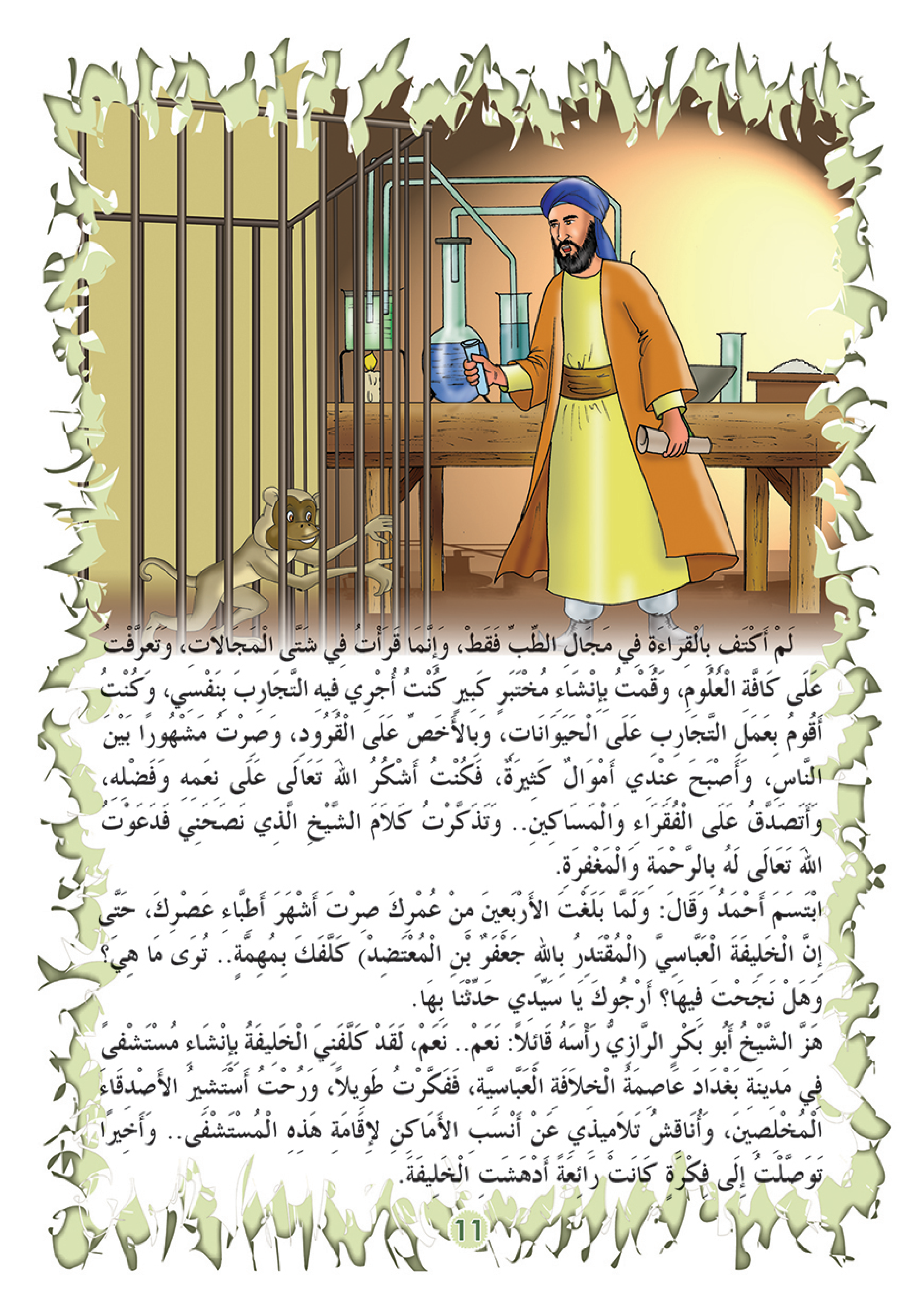
قَالَ لِي: نَعَمْ، إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُعَانُونَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْمَرَضِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ: انْظُرْ بِنَفْسِكَ.. فَوَجَدْتُ بِالْفِعْلِ أُنَاسًا كَثِيرِينَ قَدْ أَصَابَهُمُ الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ، قُلْتُ: وَمَاذَا عَسَانِي أَنْ أَفْعَلَ يَا سَيِّدِي وَأَنَا إِنْسَانٌ مِسْكِينٌ لا حَوْلَ لِي وَلا قُوَّةَ؟!

وَضَعَ الشَّيْخُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي وَقَالَ: أَنْتَ تَمْتَلِكُ الْكَثِيرَ.. أَنْتَ مُسْلِمٌ، وَالْمُسْلِمُ كَالشَّجَرَةِ الْمُثْمِرَةِ، يُعْطِي وَيَمْنَحُ، وَاللهُ تَعَالَى يُبَارِكُ لَهُ وَيَزِيدُهُ.

قُلْتُ: نَعَمْ سَيِّدِي، وَلَكِنْ مَاذَا بِوُسْعِي أَنْ أُقَدِّمَ وَأَنَا رَقِيقُ الْحَالِ لا أَمْلِكُ مالاً وَلا جَاهًا.



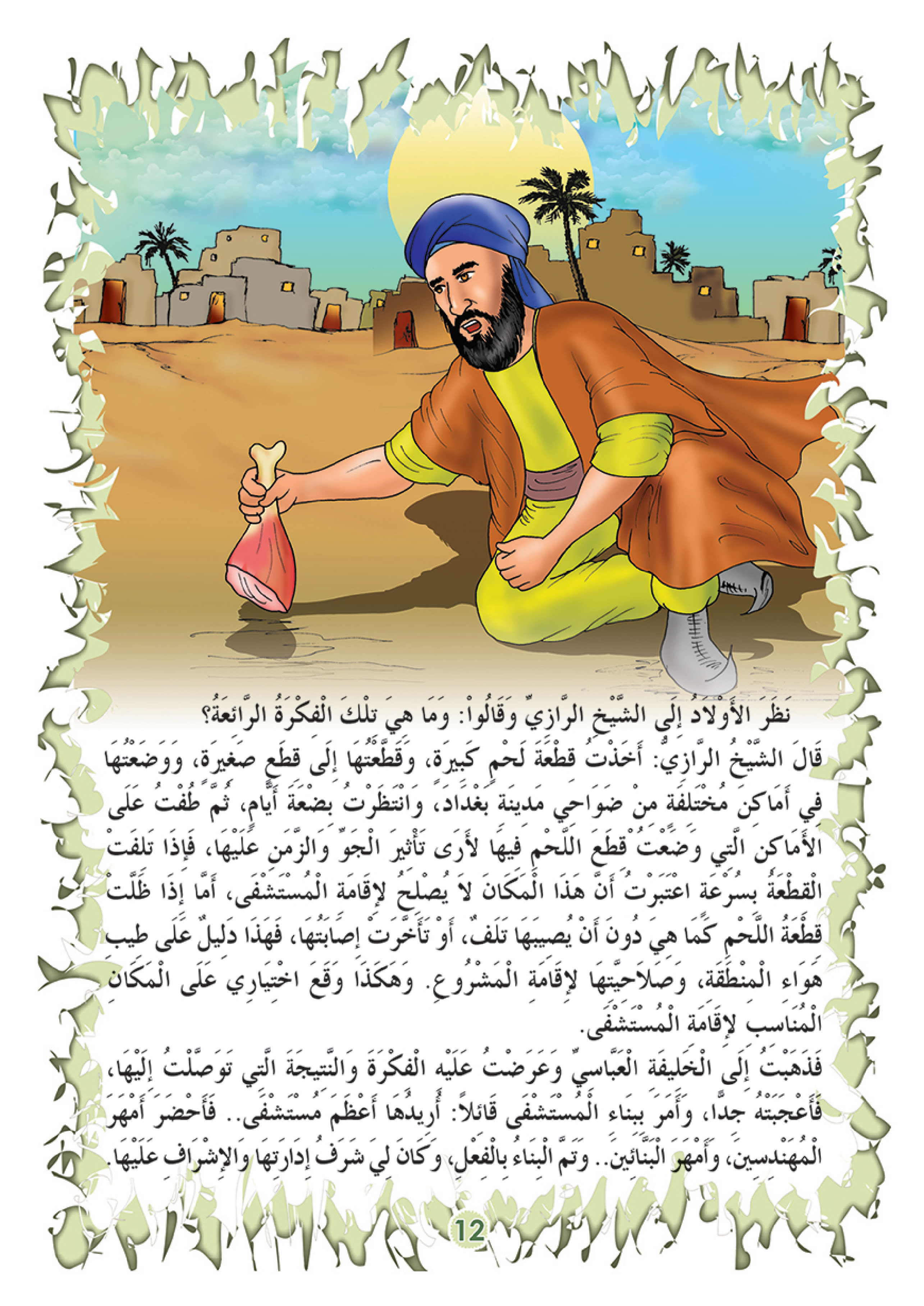
قَالَ الشَّيْخُ الْحَكِيمُ: إِنَّ أَمَارَاتِ الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ تَبْدُو عَلَى مَلَامِحِ وَجْهِكَ، كَمَا أَنَّكَ مَوْهُوبٌ.. فَقَطْ ضَعْ لِنَفْسِكَ خُطَّةً تَسْتَفِيدُ مِنْهَا.. وَاقْرَأْ وَاجْتَهِدْ. ثُمَّ قَامَ الشَّيْخُ وَمَشَى.
شَعَرْتُ بَعْدَهَا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَكَسَرْتُ الْعُودَ، وَقُلْتُ: لَا غِنَاءَ بَعْدَ الْيَوْمِ.. ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْمَكْتَبَاتِ وَرُحْتُ أَقْرَأُ وَأَقْرَأُ، حَتَّى اكْتَشَفْتُ أَنَّ الْقِرَاءَةَ هِيَ أَلَذُّ وَأَمْتَعُ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ..
وَكُنْتُ كُلَّمَا قَرَأْتُ كِتَابًا جَدِيدًا ازْدَدْتُ مَعْرِفَةً، وَشَعَرْتُ بِقُوَّةٍ تَسْرِي فِي جَسَدِي..
ثُمَّ اتَّجَهْتُ إِلَى قِرَاءَةِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، وَبِالْأَخَصِّ كُتُبِ الطِّبِّ الَّتِي كَتَبَهَا الْيُونَانِيُّونَ وَالْهُنُودُ وَغَيْرُهُمْ، أَمْثَالُ أَبُقْرَاطَ الْمَعْرُوفِ بِأَبِي الطِّبِّ، وَجَالِينُوسَ، وَسُقْرَاطَ، وَأَرِسْطُو.. وَقَرَأْتُ لِلْعَالِمِ الْمُسْلِمِ الْكَبِيرِ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ، وَاسْتَفَدْتُ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِهِ فِي مَجَالِ الْكِيمْيَاءِ.. وَقَرَّرْتُ أَنْ أُجَرِّبَ، وَأَنْ تَتَحَوَّلَ الْقِرَاءَةُ إِلَى مُمَارَسَةٍ، فَرُحْتُ أَتَقَابَلُ مَعَ الْمَرْضَى وَأَبْحَثُ مَعَهُمْ عَنِ الدَّوَاءِ الْمُنَاسِبِ، فَوَفَّقَنِي اللهُ لِعِلَاجِهِمْ وَتَمَّ لَهُمُ الشِّفَاءُ!



لَمْ أَكْتَفِ بالْقِراءَةِ في مَجالِ الطِّبِّ فَقَطْ، وإِنَّمَا قَرأْتُ فِي شَتَّى الْمَجالاتِ، وَتعرَّفْتُ عَلَى كَافَّةِ الْعُلُومِ، وَقُمْتُ بإنْشَاءِ مُخْتَبَرٍ كَبِيرٍ كُنْتُ أُجْرِي فيه التجَارِبَ بنَفْسِي، وَكُنْتُ أَقُومُ بِعَمَلِ التَّجَارِبِ عَلَى الْحَيَوانَاتِ، وَبالأَخصِّ عَلَى الْقُرُودِ، وَصرْتُ مَشْهُورًا بَيْنَ النَّاسِ، وَأَصْبَحَ عِنْدِي أَموالٌ كَثِيرَةٌ، فَكُنْتُ أَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ وَفَضْلِه، وَأَتَصَدَّقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَساكِينِ.. وَتَذَكَّرْتُ كَلامَ الشَّيْخِ الَّذِي نَصَحَنِي فَدَعَوْتُ اللهَ تَعَالَى لَهُ بالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

ابْتَسَمَ أَحْمَدُ وَقَالَ: وَلَمَّا بَلَغْتَ الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِكَ صِرْتَ أَشْهَرَ أَطِبَّاءِ عَصْرِكَ، حَتَّى إِنَّ الْخَلِيفَةَ الْعَبَّاسِيَّ (الْمُقْتَدِرُ بِاللهِ جَعْفَرُ بْنُ الْمُعْتَضِدِ) كَلَّفَكَ بِمُهِمَّةٍ.. تُرَى مَا هِيَ؟ وَهَلْ نَجَحْتَ فِيهَا؟ أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي حَدِّثْنَا بِهَا.

هَزَّ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ رَأْسَهُ قَائِلاً: نَعَمْ.. نَعَمْ، لَقَدْ كَلَّفَنِي الْخَلِيفَةُ بِإنْشَاءِ مُسْتَشْفَى فِي مَدِينَةِ بَغْدَادَ عَاصِمَةِ الْخِلافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَفَكَّرْتُ طَوِيلاً، وَرُحْتُ أَسْتَشِيرُ الأَصْدِقَاءَ الْمُخْلِصِينَ، وَأُنَاقِشُ تَلامِيذِي عَنْ أَنْسَبِ الأَمَاكِنِ لإِقَامَةِ هَذِهِ الْمُسْتَشْفَى.. وَأَخِيرًا تَوَصَّلْتُ إِلَى فِكْرَةٍ كَانَتْ رَائِعَةً أَدْهَشَتِ الْخَلِيفَةَ.



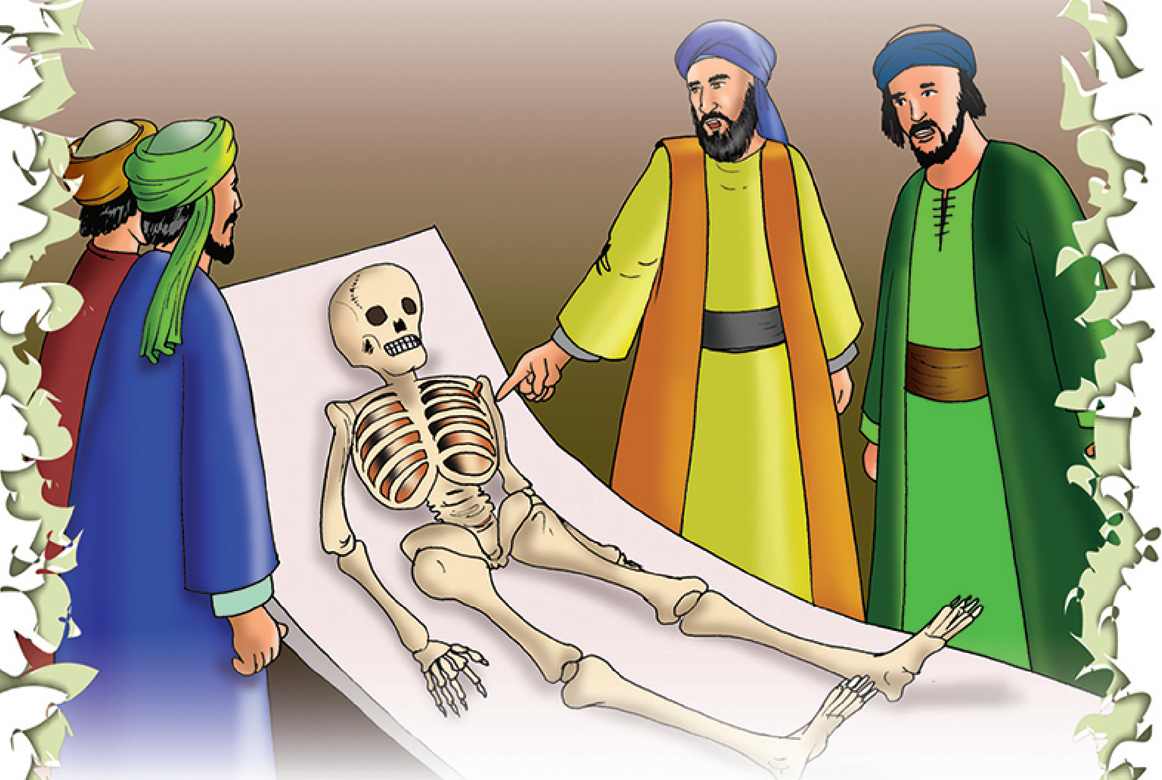
نَظَرَ الأَوْلَادُ إِلَى الشَّيْخِ الرَّازِيِّ وَقَالُواْ: وَمَا هِي تلْكَ الْفكْرَةُ الرَّائعَةُ؟

قَالَ الشَّيْخُ الرَّازِيُّ: أَخَذْتُ قطْعَةَ لَحْمٍ كَبيرَة، وَقَطَّعْتُهَا إِلَى قطَعٍ صَغيرَة، وَوَضَعْتُهَا في أَمَاكنَ مُخْتَلفَة من ضَوَاحي مَدينَة بَغْدَادَ، وَانْتَظَرْتُ بضْعَةَ أَيَّام، ثُمَّ طُفْتُ عَلَى الأَمَاكن الَّتي وَضَعْتُ قطَعَ اللَّحْم فيهَا لأَرَى تَأْثيرَ الْجَوِّ وَالزَّمَنِ عَلَيْهَا، فَإِذَا تلفَتْ الْقطْعَةُ بسُرْعَة اعْتَبَرْتُ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ لاَ يُصْلحُ لإقَامَة الْمُسْتَشْفَى، أَمَّا إِذَا ظَلَّتْ قطْعَةُ اللَّحْمِ كَمَا هي دُونَ أَنْ يُصيبَهَا تلَفٌ، أَوْ تَأَخَّرَتْ إِصَابَتُهَا، فَهَذَا دَليلٌ عَلَى طيب هَوَاء الْمنْطَقَة، وَصَلَاحيَّتهَا لإقَامَة الْمَشْرُوعِ. وَهَكَذَا وَقَعَ اخْتيَاري عَلَى الْمَكَان الْمُنَاسب لإقَامَة الْمُسْتَشْفَى.

فَذَهَبْتُ إِلَى الْخَليفَة الْعَبَّاسيِّ وَعَرَضْتُ عَلَيْه الْفكْرَةَ وَالنَّتيجَةَ الَّتي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهَا، فَأَعْجَبَتْهُ جدًّا، وَأَمَرَ ببنَاء الْمُسْتَشْفَى قَائلاً: أُريدُهَا أَعْظَمَ مُسْتَشْفَى.. فَأَحْضَرَ أَمْهَرَ الْمُهَنْدسينَ، وَأَمْهَرَ الْبَنَّائينَ.. وَتَمَّ الْبنَاءُ بالْفعْلِ، وَكَانَ لي شَرَفُ إِدَارَتهَا وَالإِشْرَاف عَلَيْهَا.

قَالَ أَحْمَدُ: وَمَاذَا فَعلْتَ بَعْدَ أَنْ صِرتَ الْمُشْرِفَ الْعَامَ عَلَى هَذَا الْمُسْتَشْفَى؟

قَالَ الشَّيْخُ الْعَلاَّمَةُ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ: كَانَت النَّظَافَةُ وَالنِّظَامُ أَسَاسَ الْعَمَلِ بِالْمُسْتَشْفَى، وَكُنْتُ دَائمًا أَنْصَحُ تَلاَمِيذِي أَنْ يَهتَمُّوا بِمُتَابَعَة مَرْضَاهُمْ، وَأَنْ يَكُونُوا رُحَمَاءَ بِهِمْ.. وَفِي دَاخِلِ الْمُسْتَشْفَى كَانَتْ لِي الْكَثِيرُ مِنَ الْمُحَاضَرَات الَّتِي قُمْتُ بِتَدْرِيسِهَا، وَكُنْتُ أَنْصَحُ الأَطِبَّاءَ دَائمًا أَنْ يَعْرِفُوا تَشْرِيحَ أَعْضَاءِ الْجِسْمِ؛ لِذَلِكَ كُنْتُ أُحْضِرُ لَهُمُ الْقُرُودَ مِنْ بِلاَدِ زَنْجبَار فِي أَفْرِيقْيَا، وَأُجْرِي عَلَيْهَا التَّجَارِبَ أَمَامَ التَّلاَمِيذِ، فَإِذَا نَجَحَت التَّجْرِبَةُ عَلَى الْحَيَوَانِ نَقُومُ بِإِجْرَائِهَا عَلَى الإِنْسَانِ.



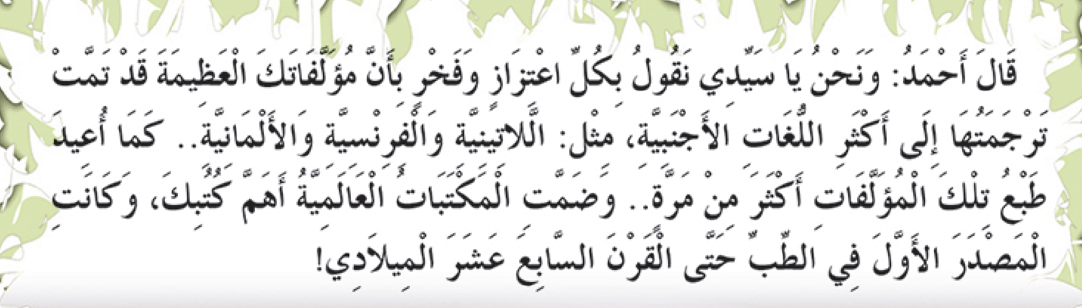
وَبَلَغَتْ شُهْرَتِي الآفَاقَ، فَكَانَ طَلَبَةُ الْعِلْمِ يَأْتُونَ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ الدُّوَلِ لِيَحْضُرُوا دُرُوسِي وَمُحَاضَرَاتِي.. كَذَلِكَ كَانَ الْمَرْضَى يَأْتُونَ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ مَكَان.. وَكَانَتْ لِي عَطَايَا وَرَوَاتِبُ ثَابِتَةٌ أُعْطِيهَا لِبَعْضِهِمْ، وَكُنْتُ أَنْصَحُ الأَطِبَّاءَ أَنْ يُعَالِجُوا الْفُقَرَاءَ بِالْمَجَّانِ.



قَالَ أَحْمَدُ: سَيِّدِي، نُرِيدُ أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَى أَهَمِّ الإِنْجَازَاتِ الَّتِي قُمْتَ بِهَا.

قَالَ الشَّيْخُ الرَّازِيُّ: الْحَمْدُ للهِ، فَقَدْ قُمْتُ بِتَأْلِيفِ الْعَدِيدِ مِنَ الْكُتُبِ، مِنْ أَهَمِّهَا كِتَابُ (الْحَاوِي فِي التَّدَاوِي)، الَّذِي يُعَدُّ أَشْهَرَ مَوْسُوعَةٍ طِبِّيَّةٍ ظَهَرَتْ، وَقَدْ تُرْجِمَ هَذَا الْكِتَابُ إِلَى الْعَدِيدِ مِنْ لُغَاتِ الْعَالَمِ.قَالَ أَحْمَدُ: نَعَمْ سَيِّدِي بِكُلِّ تَأْكِيدٍ.. فَإِنَّنَا قَرَأْنَا أَنَّ أَشْهَرَ أَطِبَّاءِ أُورُوبَّا اسْتَعَانُوا بِهِ، وَكَانَ مَرْجِعًا مُهِمًّا لَهُمْ.قَالَ الشَّيْخُ الرَّازِيُّ: وَلِي مُصَنَّفَاتٌ أُخْرَى، مِنْهَا: كِتَابُ (الْمَنْصُورِيُّ فِي الطِّبِّ)، وَهُوَ مُخْتَصَرٌ لِلْحَاوِي، وَكِتَابُ (الْجُدَرِيُّ وَالْحَصْبَةُ)، وَبَيَّنْتُ فِيهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَكِتَابُ (بُرْءِ السَّاعَةِ)، وَتَنَاوَلْتُ فِيهِ الأَمْرَاضَ الَّتِي تُشْفَى فِي سَاعَةٍ (أَيْ بِسُرْعَةٍ)؛ لِأَنَّ هُنَاكَ بَعْضَ الأَطِبَّاءِ يَسْتَغِلُّونَ الْمَرْضَى وَيُطِيلُونَ فَتْرَةَ الْعِلَاجِ لِأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ بِدُونِ وَجْهِ حَقٍّ. وَكِتَابُ (مَنْ لَا يَحْضُرُهُ طَبِيبٌ)، وَهُوَ مُرْشِدٌ لِلْمُسَافِرِ أَوْ مَنْ لَمْ يَجِدْ طَبِيبًا فِي مُحِيطِهِ.أَمَّا أَشْهَرُ مُؤَلَّفَاتِي فِي الْكِيمْيَاءِ فَهِيَ: (سِرُّ الأَسْرَارِ)، وَفِيهِ كَيْفِيَّةُ تَحْوِيلِ الْمَوَادِّ الرَّخِيصَةِ إِلَى ذَهَبٍ، وَكِتَابُ (التَّدْبِيرِ)، وَفِيهِ تَحْضِيرُ الْمَوَادِّ الْكِيمَاوِيَّةِ، وَأَهَمُّ الأَدَوَاتِ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِي ذَلِكَ.لَقَدْ تَرَكْتُ – بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى – ثَرْوَةً عِلْمِيَّةً وَمَعْرِفِيَّةً هَائِلَةً، تَضُمُّ نَحْوَ (230) مُؤَلَّفٍ فِي عُلُومِ الطِّبِّ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْفَلَكِ وَالْفِيزْيَاءِ وَالْكِيمْيَاءِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

قَالَ أَحْمَدُ: وَنَحْنُ يَا سَيِّدِي نَقُولُ بِكُلِّ اعْتِزَازٍ وَفَخْرٍ بِأَنَّ مُؤَلَّفَاتَكَ الْعَظِيمَةَ قَدْ تَمَّتْ تَرْجَمَتُهَا إِلَى أَكْثَرِ اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، مِثْلَ: اللاَّتِينِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ وَالأَلْمَانِيَّةِ.. كَمَا أُعِيدَ طَبْعُ تِلْكَ الْمُؤَلَّفَاتِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.. وَضَمَّتِ الْمَكْتَبَاتُ الْعَالَمِيَّةُ أَهَمَّ كُتُبِكَ، وَكَانَتِ الْمَصْدَرَ الأَوَّلَ فِي الطِّبِّ حَتَّى الْقَرْنِ السَّابِعَ عَشَرَ الْمِيلاَدِي!



قَالَ حُسَامٌ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ لِشَيْخِنَا الرَّازِي ابْتِكَارَاتٍ كَثِيرَةً.. لَيْتَهُ يُحَدِّثُنَا عَنْهَا.

قَالَ الشَّيْخُ الرَّازِيُّ: حَسَنًا، لَقَدْ جَعَلْتُ مِنْ أَمْعَاءِ الْحَيَوَانَاتِ خُيُوطًا اسْتَخْدَمْتُهَا فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْجِرَاحِيَّةِ.. وَهِيَ طَرِيقَةٌ لاَ يَزَالُ يُؤْخَذُ بِهَا حَتَّى الآنَ! وَقُمْتُ بِاسْتِعْمَالِ الْفَتَائِلِ فِي الْجُرُوحِ، كَمَا قُمْتُ بِتَرْكِيبِ مَرَاهِمِ الزِّئْبَقِ، وَكُنْتُ أَوَّلَ مَنِ اسْتَخْدَمَ الْكِيمْيَاءَ لِخِدْمَةِ الطِّبِّ، فَقُمْتُ بِتَحْضِيرِ عَدَدٍ مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الْكِيمْيَائِيَّةِ الَّتِي تَخْدُمُ الصَّيْدَلِيَّةَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ قَامَ بِتَحْضِيرِ مَادَّةِ الْكُحُولِ مِنْ مُخَمَّرَاتِ مَحَالِيلَ سُكَّرِيَّةٍ، وَحِمْضِ الْكِبْرِيتِيكِ بِتَقْطِيرِ كِبْرِيتَاتِ الْحَدِيدِ..



الْتفَتَ أَحْمَدُ إِلَى أَصْدقَائه قَائلاً: أَيُّهَا الأَصْدقَاءُ، إِنَّ احْتفَاظَ جَامعَة برنْستُونْ الأَمْريكيَّة بمؤَلَّفَات هَذَا الْعَالم الْمسْلم في وَاحدَة منْ أَعْظَم قَاعَاتها لَدليلٌ وَاضحٌ عَلَى مكَانَته الْعلْميَّة.. كَمَا أَنَّهُمْ قَامُواْ بإطْلَاق اسْمه عَلَيْهَا، وَهُوَ نَوْعٌ منَ التَّكْريم لهَذَا الْعَالم الَّذي يَحقُّ لَنَا أَنْ نَفْخَرَ به دَائمًا، لمَا قَدَّمَهُ للإنْسَانيَّة منْ ابْتكَارَات.قَالَ الشَّيْخُ الرَّازي بتَوَاضُعٍ شَديد: الْحَمْدُ لله منْ قَبْلُ وَمنْ بَعْدُ.. إنَّ لكُلِّ مُجْتَهد نَصيبًا، وَقَد اجْتَهَدْتُ وَوَفَّقَني اللهُ تَعَالَى.. وَكُلُّ مَا أَتَمَنَّاهُ منَ الله أَنْ تَكُونَ هَذه الأَعْمَالُ في ميزَانِ حَسَنَاتي يَوْمَ الْقيَامَة، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بقَلْب سَليم.

ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ الرَّازيُّ: أَنَا – بحَقٍّ – سَعيدٌ جدًّا بكُمْ؛ لأَنَّكُمْ تَهْتَمُّونَ بالْعلْم وَتَبْحَثُونَ في بُطُون الْكُتُب، في الْوَقْت الَّذي يَلْهُو فيه غَيْرُكُمْ مَا بَيْنَ اللَّعب وَتَضْييع الْوَقْت وَإهْدَار الْمَال فيمَا لاَ يَنْفَعُ.. اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنَحَنَا نعَمًا عَظيمَةً منْهَا نعْمَةُ الْوَقْت، فَالْوَقْتُ كَالسَّيْف إنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ، وَوَقْتُكَ إنْ لَمْ تَشْغَلْهُ بمَا يُفيدُ شَغَلَكَ بمَا لاَ يُفيدُ.